

بين التاريخ والفلكلور

صلاح الدين الأيوبي في السيرة الظاهرية

إعداد

د / محمد فوزي رحيل

141

ملك فرنسا - . غير أن المسكوت عنه هو نظرة أو موقف عامة العرب بصفة عامة والمصريين بصفة خاصة حيال هذا البطل. فمن المؤكد احتفال الشعب العربي والإسلامي به في كل مكان لكن ما أشكال ذلك الاحتفال؟ وماذا حفظ العقل الجمعي للشعب العربي لصالح الدين؟ وبخاصة أن العقل الجمعي الأوربي قد سطر عنه أساطير^١، أما صلاح الدين في الوجدان العامي العربي فلم يحظ بعد بالنصيب الكافي من البحث الأكاديمي.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث لتتطرق فيما حمله العقل الجمعي للشعب المصري حول سيرة هذا البطل، وبخاصة أنه قد مجد كثيراً من الأبطال السياسيين والشعبيين في سير ضخمة، وصلت أحياناً إلى آلاف الصفحات منها السيرة الهلالية^٢، وسيرة الظاهر بيبرس^٣. غير أن الملفت للنظر عدم إفراد البطل صلاح الدين بسيرة شعبية أو ملحمة مستقلة، وهو أمر يحتاج إلى تفسير نؤجله إلى نهاية الدراسة. غير أن هذا الأفراد لم يمنع أن يدخل ضمن نطاق سير أخرى، ومن هنا بحثنا وتقصينا حتى عثرنا على ضالتنا في بداية السيرة الشعبية الضخمة للظاهر بيبرس البندقداري.

وقبل الخوض في غمار الدراسة يجب توضيح أمر مهم، ألا وهو أن المؤرخين قد ترددوا طويلاً قبل اعتماد الموروث الشعبي مصدراً من مصادر البحث الأكاديمي في مجال الدراسات التاريخية، حيث نظروا إلى الموروث الشعبي من السير والملاحم على أنها مجرد ضرب من الأساطير تتناسب مع بساطة فكر العامة، ومن ثم لا يركن إليها في البحث التاريخي الجاد. غير أن التطور الديمقراطي والاشتراكي فيما بين الحرين العالميتين، وما صاحبه من الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي قد أدبا إلى ظهور اتجاه جديد في مجال الكتابة التاريخية عده البعض ثورة تاريخية تجلت في الربع الأخير من القرن العشرين، وأهم مبادئ هذه الثورة أن التاريخ ليس مرادفاً لسير الحكام وحروبهم، لكنه مرادف لمسيرة البشر الحضارية على سطح كوكب الأرض، منذ أن وطأته قدم الإنسان وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى هذا فكل ما صدر عن البشر، أيا كان خيراً أو شراً، مادياً كان أو معنوياً، جزء من التاريخ له دلالاته وأهميته ويجدر دراسته والاستفادة منه مهما كان صغيراً أو كما يبدو غير جدير بالملاحظة^٤. والحقيقة أن هذه الثورة قد وصلت متأخرة إلى عالمنا العربي وربما يكون بطء الحراك السياسي له دور في هذا التأخر لكنها على أي حال وصلت، وبدا هناك اتجاه متزايد بمجال التاريخ الاجتماعي، ومن ثم حدث تطور في الأدوات التي يعتمد

Walker, On the increase of royal power in France under Philip Augustus , London, 1888;
Hutton, Philip Augustus, London, 1896 ; Goyau , "Philip II Augustus", in C.E.
<http://www.newadvent.org/cathen/04543c.htm/cathen/120001a.html>

- ١ - حول ما دار عن صلاح الدين من أساطير في الغرب انظر : محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٨٧-٣١٢.
- ٢ - عبد الرحمن الابنودي، السيرة الهلالية للشعراء الشعبيين، خمسة أجزاء، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٨.
- ٣ - طبعت هذه السيرة في القاهرة بدون تاريخ باعتناء عبد الحميد أحمد الحنفي بشارع المشهد الحسيني ونفذت منذ وقت طويل، كما أعيد طبعها في مجلد واحد في بيروت بالمكتبة الثقافية أيضاً بدون تاريخ لكن تخلو من الأشعار. وأعيد طبع السيرة حديثاً طبعة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي وقدم لها جمال الغيطاني بالهئية المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٦م.
- ٤ - قاسم عبده قاسم، القراءة الشعبية للتاريخ، مجلة العربي، العدد (٤٩٣)، الكويت، ديسمبر ١٩٩٩م.

عليها المؤرخ ، ذلك أن التاريخ الاجتماعي يهتم بالتركيب الاجتماعي والبناء الطبقي والعادات والتقاليد والحرف والأسواق، والمصادر التقليدية للتاريخ لا تفي بتغطية كل هذه النواحي؛ ومن ثم لجأ المهتمون بالتاريخ الاجتماعي إلى استخدام أدوات جديدة ومصادر غير تقليدية في معالجة هذه الموضوعات ومن بين هذه المصادر السير الشعبية^١.

هذا أمر، أما الأمر الآخر الذي يجدر الإشارة إليه: هو أن نعرف أن هذا الاتجاه - الاعتماد على السيرة الشعبية كمصدر تاريخي - ما زال محدوداً في عالمنا العربي، بل ما زال كثير من الأكاديميين المهتمين بالدراسات التاريخية يستهجنونه، لكن هناك تياراً آخر يهدف إلى إعادة قراءة التاريخ مستفيداً من المصادر الشعبية للتاريخ. وبعد الدكتور قاسم عبده قاسم من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بهذا المجال، وعلى منواله اقتفى عدد من الباحثين الجدد أثره في هذا المجال، غير أنهم مازالوا قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة^٢.

وفي البداية نتفق مع الدكتور قاسم على أن السيرة الشعبية لا تهم برصد الأحداث والوقائع التاريخية كما حدث بالفعل، أو كما دونها المؤرخون، بقدر ما تعبر عن رأي العامة من الناس في هذه الأحداث، فالراوي الشعبي لا يهتم سوى تلبية الحاجات الاجتماعية والثقافية للمتلقين من عامة الشعب^٣، خصوصاً أن رؤية عامة الشعوب للأحداث التاريخية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتفصيل الحوادث، ولا تلقي بالاً إلا لصورة كلية للأحداث مليئة بكثير من الرموز الاجتماعية والثقافية تعبر بصدق عن موقف الجماعة حيال هذه الأحداث^٤. وفي هذا السياق تأتي صورة صلاح الدين الأيوبي في السيرة الظاهرية. وفيما يتعلق بالدراسات السابقة حول هذا الموضوع ، فقد ألمح إليه الدكتور قاسم في الفصل الخامس من كتاب "بين التاريخ والفلكلور" المعنون باسم "الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس"^٥.

ثانياً: تمهيد

أما عن السيرة الظاهرية فنسب إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري ، الذي حكم سلطنة المماليك خلال الفترة الممتدة فيما بين عامي ٦٥٨-٦٧٦هـ (١٢٦٠-١٢٧٧م) وقد وصل إلينا عدد من السير الرسمية التي دونها مؤرخون كانوا على صلة مباشرة بالظاهر بيبرس: الأولى الروض الزاهر

١ - قاسم عبده قاسم، السيرة الشعبية مصدراً لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في السيرة الظاهرية، ضمن كتاب، بين الأدب والتاريخ، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٤٠-١٤١.

٢ - ممن اقتفى أثر الأستاذ الجليل في هذا المجال الدكتور عمرو عبد العزيز منير وقد تخصص في هذا المجال رسالتيه للماجستير والدكتوراه ، كذلك أسهم الأستاذ الدكتور الأمين أبو سعده في هذا المجال ببحث حول سيرة الأميرة ذات الهمة، ثم حاولتي هذه.

٣ - قاسم عبده قاسم، السيرة الشعبية مصدراً لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في السيرة الظاهرية، ضمن كتاب، بين الأدب والتاريخ، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٣٧-١٥٦.

٤ - عمرو عبد العزيز، مصر والنيل بين التاريخ والفلكلور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص ١٦.

٥ - ص ١٣٢

في سيرة الملك الظاهر نجي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)^١، الثانية حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية لشافع بن علي الكاتب (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م)^٢. تاريخ الملك الظاهر لعز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)^٣. أما السيرة الظاهرية التي هي مصدر للصورة الشعبية لموضوعنا عن صلاح الدين الأيوبي فملحمة شعبية ضخمة، دارت حول شخصية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، أو "تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة (السلطان محمود الظاهر بيبرس) ملك مصر والشام". وهذه الملحمة في الأصل رواية شفاهية يختلط فيها التاريخ بالخيال، ولا نعلم على وجه التحديد تاريخ تدوينها، لكن من الواضح من خلال مطالعة السيرة أنها دونت في القاهرة في العصر المملوكي وتطورت ونمت عبر السنين إلى أن أخذت شكلها النهائي في بدايات الحكم العثماني لمصر^٤.

ويري الباحث الفرنسي فرانسيس جينل أن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس قد بدأت في الظهور في القرن السادس عشر الميلادي، ومع انتشار المقاهي على نطاق واسع في القرن الثامن عشر الميلادي، صارت ملجأ للحكواتية سواء في مصر أو الشام ومن ثم صار لدينا عدة روايات لهذه السيرة الشعبية: الرافد الأول دمشقي والرافد الثاني حلبي والرافد الثالث قاهري ويؤكد جينل على أن الروايات الثلاث لا تختلف عن بعضها كثيراً من حيث القصة أو الحبكة لكن هناك بالطبع اختلافات طفيفة من جراء اختلاف جغرافيا المكان^٥. وما يعنينا الرواية المصرية التي طبعت في خمسين جزءاً، وزعت على خمسة مجلدات، كل منها يحوي ستمائة صفحة تقريباً، وهي في الأصل تدوين لرواية شفاهية مليئة بالأشعار المرتجلة والكلمات العامية^٦. و يهمننا من هذه السيرة في هذه الدراسة، الجزء الأول الذي يُعدُّ من مقدمات السيرة، وقد شمل صورة صلاح الدين الأيوبي^٧، موضع دراستنا هذه.

ثالثاً: مجمل سيرة صلاح الدين الأيوبي في السيرة الظاهرية:

- ١ - تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
- ٢ - تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٦٧م.
- ٣ - تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ٤ - ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)، مادة "سيرة الظاهر بيبرس" http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B8%D8%A7%D9%87%D8%B1_%D8%A8%D9%8A%D8%A8%D8%B1%D8%B3
- ٥ - سوزان إبراهيم، الظاهر بيبرس آخر السير الشعبية - اختفاء الحكواتية أوقف الإضافات، صحيفة الثورة - دمشق - الأحد ٢٧-٩-٢٠٠٩م. والمقال هو تقرير عن المحاضرة التي ألقتها الباحثة الفرنسية في التراث الشعبي فرانسيس جينل والتي ألقاها في المركز الثقافي الفرنسي بدمشق.
- ٦ - طبعت السيرة في القاهرة بدون تاريخ باعتناء عبد الحميد أحمد الحنفي بشارع المشهد الحسيني ونفذت منذ وقت طويل، كما أعيد طبعها في مجلد واحد في بيروت بالمكتبة الثقافية أيضاً بدون تاريخ لكن تخلو من الأشعار. وأعيد طبع السيرة حديثاً طبعة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي وقدم لها جمال الغيطاني بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٦م.
- ٧ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، تقديم جمال الغيطاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٠-٤٤.

في البداية آثرت أن أقدم مجملًا للسيرة بالترتيب الذي ورد في السيرة الظاهرية، حتى إذا دلفنا إلى ما حوته من قضايا تاريخية، يكون لدى القارئ خلفية أو صورة متكاملة تمكنه من تتبع الدلالات التاريخية لهذه الصورة.

تروي السيرة أنه عقب اجتياح المغول لبغداد بقيادة هولاكو - أو هلاوون كما أسمته السيرة - دخل عدد من الأكراد وهم في زى الصوفية، وكان قائدهم هو صلاح الدين يوسف الكردي، وقاموا بعمل أذكار الصوفية فاعتبر ما يفعلونه ضرباً من ضروب الجنون، فأمر بطردهم، غير أنهم صاحوا مكبرين، وقاموا بالقضاء على المغول بالسيوف الخشبية التي يحملونها وأطلقوا سراح الخليفة العباسي الذي أسمته السيرة شعبان المقتدي. وتستطرد السيرة لتروي سبب قدوم الأكراد إلى بغداد بقيادة صلاح الدين، وهذا السبب يرجع إلي تعرض بلادهم للجفاف، فاجتمعوا فيما بينهم وذهبوا إلى بغداد ليشكوا حالهم إلى خليفة المسلمين، عله يمنحهم أرضاً جديدة أكثر خصوبة، وأوفر خيراً من بلادهم، وبالفعل ذهبوا إلى بغداد وأنقذوا الخليفة من يد المغول بقيادة صلاح الدين.

ومن هنا صمم الخليفة على إكرام صلاح الدين ومن معه من الأكراد باستضافتهم في بغداد مدة تسعين يوماً يستمع بعدها إلي مطالبهم وقد كان. فقد بقي صلاح الدين في بغداد وجعل منه الخليفة وكيلاً عنه في بغداد حين أراد الخروج للصيد. خلال تلك الفترة أعاد المغول الكرة لاجتياح بغداد، والانتقام لهزيمتهم السابقة، وأراد الخليفة إغلاق أبواب المدينة لكن صلاح الدين رفض ذلك، وأكد للخليفة أنه كفء للمغول هو ورجاله من الأكراد. وبالفعل قاد صلاح الدين الهجوم الناجح للتصدي للمغول وأبادهم، وكسر عادية ولدي منكم ملك المغول وهما هولاكو المهزوم سابقاً وعبد يزيد الذي جاء مدداً لأخيه، وما أن كسرا حتى جاء مدد آخر بقيادة منكم ملك المغول نفسه، ومن ثم اشتعلت الحرب من جديد، وكان قائد الدفاع الإسلامي فيها هو صلاح الدين أيضاً.

وفي هذه المرة استمر القتال ثلاثة أيام كان الظفر فيها للمسلمين أيضاً، وعقب نهاية المعركة شكر الخليفة صلاح الدين يوسف الكردي وعاد معه إلى بغداد فبالغ في إكرامه وجعله من خاصته ومقربيه. ثم استعرض الخليفة الغنائم والأسري فكان من بينها منكم المغولي ولديه هولاكو وكتب يزيد. فأمر الخليفة بقتل منكم فقتل، غير أن ولديه استجارا بصلاح الدين البطل الهمام، فما كان من صلاح الدين إلا أن غلبت عليه شهامته، فتوسل إلى الخليفة أن يرد إليهما أمرهما.

ورافق الخليفة على ترك أمر ولدي منكم إلى صلاح الدين الذي قرر عليهما مبالغ مالية ضخمة مقابل الإبقاء على حياتهما وإطلاق سراحهما. غير أن الخليفة قرر إبقائهما في السجن حتى دفع المال، غير أن صلاح الدين غلبت عليه شهامته مرة أخرى، وضمنهما على أن يطلق سراحهما ثم يرسل المال بعد العودة إلى بلادهما، وزيادة في الكرم رد عليهما خيولهما وسلاحهما ولم يعارض الخليفة. وقد أوفى المغوليان

بعدهما ولم يخذلا صلاح الدين فبعد أمد غير طويل قدم رسل التتار ومعهم ما وعدا من مال وفوقه مال
جزيل لصلاح الدين تقديراً لقدره وشكراً على فعله.

وبعد أن تم أجل الضيافة الذي حدده الخليفة لصلاح الدين والأكراد وهو تسعون يوماً، عرضوا
عليه طلبهم وهو منحهم أرضاً أكثر خصوبة وأوفر خيراً من بلادهم التي أصابها الجفاف وهدمت المطر.
والغريب أن الخليفة قد بالغ في الإكرام حتى أنه "قرب يوسف صلاح الدين وقال له يا سيدي أنت أحق
بهذا التخت مني لأنك نصرت الإسلام وأقمت الشعائر والأحكام وهذه الفعال فعال الكرام فلا أجازيك
إلا بهذا التخت لأنك الآن أحق به"، غير أن صلاح الدين رفض ذلك الأمر لأن الأحق به الخليفة العباسي
بحكم قرابته من نبي الإسلام، ومن ثم لا يتنازع أحد في ملكه، ولا يطلب منه سوى أرض جديدة بدل أرض
الأكراد الجرداء. لم يجد الخليفة خيراً من مصر والشام ليكونا مكافأة لصلاح الدين ومن معه من الأكراد
على جزيل فعالهم، وإنقاذهم الخلافة والخليفة من خطر المغول، فسعد صلاح الدين بذلك.

وكتب الخليفة حجباً رسمية بمنحته لصلاح الدين، وودعه فترك صلاح الدين العراق ومعه
سبعون ألفاً من الأكراد وتقدموا إلى حلب، فسلمها له نائبها، فولى عليها كردي من قبله وترك معه حامية،
وتقدم إلى دمشق فسارع إليه واليها وسلمها إليه بعدما رأى الحجب، ثم ترك عليها والياً من قبله، وسار
حتى أتى مصر فرحب به أهلها، ودخلها في موكب عظيم وهو في مسوح الصوفية.

وفي مصر استقر الحال بصلاح الدين ومن معه من الأكراد، وجمع الخراج وأقام في قلعة الجبل
وبنى بها قصراً كبيراً اسمه قصر صلاح الدين، وأقام فيه يحكم بين الناس بالعدل. ولما مات والي الشام ولى
على دمشق ابنه العادل كما تقول السيرة، وأمره بالعدل بين الناس وجعل له وزيراً من أهل الشام.
وواصل صلاح الدين مراسلة الخليفة وطمانته على أحواله بمصر، وتوفي الخليفة وترك ولدين فكتبوا إلى
صلاح الدين ليضمننا معاضدته للمحافظة على ملكهما في ظل تربص التتار بهما، بل ومنحاه لقب أمير
المؤمنين وعرضاً إرسال الخراج. غير أن صلاح الدين رفض أن يترع عنهم ملكهما وكتب يطمئنهما
وبعدهما بالمعاونة إن احتجا إليها.

وبعد سنين ثلاث من هذه الحادثة وصل صلاح الدين خبر فحواه وفاة ولده العادل صاحب
الشام، فتأثر صلاح الدين أشد التأثر وأصابه الغم والهـم، فاستدعى ولده الكامل وجعل ملك مصر والشام
من بعده. وبعدها استسلم صلاح الدين لقضائه المحتوم، وتوفي يوم الخميس سادس ساعة من فـهار يوم
الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ ودفن في قصره^١.

أهم قضايا سيرة صلاح الدين ودلائلها التاريخية

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج ١، ص ٤٤٠-٤٤١.

كان هذا مجمل سيرة صلاح الدين كما جاءت في الرواية الشعبية للسيرة الظاهرية، والآن ننقل إلى دراسة الدلالات التاريخية لهذه الرواية الشعبية.

١- موطن الأكراد

نبدأ بأصل الأكراد ومن أين جاءوا. وعن أصل الأكراد الأيوبية تذكر السيرة أن موطنهم كان بين وادي بكر وبغداد^١. وهذا التحديد ليس دقيقاً إذ بالرجوع إلى المصادر التاريخية لتتبع أصل الأيوبيين - الذين علا ذكرهم وصارت لهم دولة على يد صلاح - نبين أن الأكراد الأيوبيين المنتسبين إلى أيوب والد صلاح الدين يعود أصلهم إلى دوين^٢ من بلاد أذربيجان، والمجموعة التي ينحدرون منها من الأصول الكردية هي الروادبة بطن من بطون قبائل الهذلبانية الكردية، وهي من كبار قبائل الأكراد^٣، وفي بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي هاجر شاذي وولده أيوب وشركوه وبنت له إلى تكريت^٤، وتكريت على وجه التحديد كانت مهجراً لكثير من الأكراد حتى باتت مركزاً لتجمعهم فراراً من بلادهم بحثاً عن ظروف أفضل بالقرب من مركز الخلافة في بغداد^٥، وبالفعل من هنا كان موطن القدم، حيث صار شاذي مستحفظاً على ولاية قلعة تكريت من قبل بهروز الكردي الذي كان شحنة^٦ للعراق من قبل السلطان السلجوقي مسعود بن محمد^٧، وبعد شاذي خلفه عليها أيوب^٨.

٢- نسب بني أيوب

أما القضية الثانية التي طرحتها السيرة فهي نسب الأيوبيين، فنظراً لمكانة الأكراد في التاريخ العربي والإسلامي، وما قدموه من خدمات جليلة، وفي طليعتهم الأيوبيين بقيادة صلاح الدين، فقد جعلتهم السيرة من نسل أشرف قريش، ينحدرون من نسل حبيب النجار^٩، الذي حمل هذا الاسم نسبة إلى اشتغاله

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٢١.

٢ - دوين: بلدة من نواحي لاران في آخر حدود أذربيجان بقرب تغليس، منها ملوك الشام، بنو أيوب. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٩١.

٣ - ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج٧، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٣٩.

٤ - تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل شمال غرب بغداد، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً أو ١٦٠ كم بالمقاييس الحديثة. انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٨. وأيضاً انظر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، مادة تكريت

٥ - هامة بجاتي شكيل، "صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة"، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٦٠.

٦ - الشحنة: هي وظيفة استحدثتها السلاجقة، وهي أشبه بوظيفة الحكمدار، ويتمتع شاغلها بسلطات شرطية وإدارية، فهو المسئول عن إدارة المدينة والمحافظة على أمنها، وكان يعين من قبل السلطان. انظر: حسين أمين، الإدارة في العراق في العصر السلجوقي، مجلة سومر، العدد العشرون، بغداد، ١٩٦٤.

٧ - السلطان مسعود: هو مسعود بن محمد بن ملكشاه، نازع أخيه السلطان محمود السلطنة ثم داود بن محمود، الذي اتفق معه على اقتسام السلطنة عام ٥٢٦هـ / ١١٣١م لكن الصراع لم ينته إذ دخل في صراع على السلطنة مع طغرل بن محمد بن ملكشاه الذي سادته السلطان سنجر لكن وفاة داود عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م مكنت مسعود من الانفراد بسلطنة سلاجقة العراق حتى توفي عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٧٤.

٨ - ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج٧، ص ١٣٩.

٩ - بالبحث عن حبيب النجار وجنا أنه هو عين الرجل الذي ذكر في القرآن الكريم في سورة ياسين، في الآية ٢٠ بأنه جاء من ضاحية المدينة التي هي أنطاكية ونصح قومه باتباع المرسلين. انظر: الطبري، ج ١٩، ص ٤١٩-٤٢٠.

بصناعة التجارة، التي امتنعتها وقد اشتهر بالكرامات والمعجزات^١. ويبدو أن الراوي الشعبي قد علق بذهنه أن العرب قد استوطنوا ديار بكر منذ فترة مبكرة من الفتح الإسلامية^٢، ومن ثم لم يجد غضاضة في نسبة الأكراد إلى العرب، ولا نلوم الراوي الشعبي في ذلك، ولدينا من الباحثين من نسب كثيراً من العلماء الأعاجم إلى العرب ودون في ذلك الكتب^٣. غير أن الراوي لم يستطع أن ينسب الأكراد الأيوبية إلى أي من القبائل العربية التي هاجرت إلى ديار بكر، فنسبهم إلى قريش وجعل حبيب النجار من أحد بطونها وكل الأكراد الأيوبية من أبنائه، ولم لا وهؤلاء الأكراد كانت لهم دولة ملء السمع والبصر ومرضى عنها من الخليفة العباسي نفسه.

غير أن الذي نؤكد أنه محاولة نسب الراوي الشعبي صلاح الدين للعروبة، لم يكن أساسه مجرد الرغبة الشعبية في تعريب العظماء، لكن أيضاً كان للأيوبيين يد في هذا الظن، إذ ألف الملك الأحمدي الأيوبي (ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م) كتاباً عن نسب الأيوبيين أكد في نهايته عروبة الأيوبيين^٤. كما جزم الزبيدي صاحب كتاب ترويح القلوب بعروبته وجعلهم من ربيعة الفرس أو من بني عمرو مزقياً بن عامر ماء السماء، أو من بني أمية^٥. غير أن كل ذلك لا أساس له، وقد شغل قديماً علماء الطبقات والتراجم بهذا الأمر حتى حسم ابن خلكان الأمر من خلال البحث الوثائقي في هذا الشأن وقال: "ولقد تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شاذي أباً آخر، حتى إنني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أر فيها سوى شيركوه بن شاذي"^٦.

٣- علاقة صلاح الدين بالخلافة.

أما علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية فقد شغلت مساحة كبيرة من رواية السيرة الظاهرية لسيرة صلاح الدين، إذ تروي قدوم صلاح الدين على الخليفة مع قومه بغرض الحصول على أرض جديدة بدل أرضهم المجدبة، غير أنه وجد الخليفة قيد أسر التتار، فما كان منه سوى التدخل العسكري المباشر، وإنقاذ الخليفة من شدته وإخراجه من السجن وإعادته إلى سابق عزه، وتواضع بعد ذلك وجلس في مجلس

^١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٢١.

^٢ - ديار بكر: بلدة كبيرة واسعة تنسب إلى بني بكر بن وائل الذين استوطنوها بعد الفتح الإسلامي في عهد معاوية بن أبي سفيان، وحدها غرب دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومن حصن كيفا وأمد وميافارقين، وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحيزان وحيني وما تغفل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل، تقع على ضفاف نهر دجلة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٤. وأيضاً، الموسوعة الحر (ويكيبيديا)، مادة ديار بكر

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%8A%D8%A7%D8%B1_%D8%A8%D9%83%D8%B1

^٣ - ناجي معروف، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في بلاد الروم، الجزيرة، شهرزور، واذريجان، ثلاثة أجزاء، بغداد، ١٩٧٩م. انظر أيضاً - صلاح الدين عربي وليس أصله كردي، ساحات حائل

<http://www.hailvb.com/vb/showthread.php?t=18791> (Cited in 22/8/2007)

^٤ - الحسن بن الملك الناصر داود (الملك الأمجد)، نسب الأيوبيين، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م.

^٥ - الزبيدي (المرتضى): ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٣٥٣.

^٦ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٤٠؛ انظر أيضاً، أشرف صالح محمد سيد، نسب الأيوبيين بين تزيف الكتابات وحقائق المصادر، مجلة الفسطاط الإلكترونية، سبتمبر ٢٠٠٧م، ص ٣. www.fustat.com

التابع المخلص، باعتبار أن الخليفة ابن عم الرسول - محمد صلى الله عليه وسلم - ومن ثم لا تجوز منازعته.

ولم يكتف بذلك بل أقام في بغداد تسعين يوماً دون تقديم مطالبه أدباً ألا يسأل الخليفة شيئاً حتى يأذن له، استطاع خلالها تأمين مقر الخلافة بعد صد هجومين انتهيا بسحق الجيش المغولي حتى أمنت الخلافة جانبهم^١، وبعد ترك صلاح الدين للعراق واستقرارهم في مصر ظل صلاح الدين على ولائه للخليفة شعبان المقتدر، إذ واصل إرسال الرسل والهدايا إليه يخبره بما أنجز في مصر، حتى بعد وفاة الخليفة وتركه صبية صفار واصل صلاح الدين دعمه لهم وتعهد بضمان استقرار الأحوال لديهم وإمدادهم بالعسكر إذا لزم الأمر^٢.

هذا ما روته السيرة وهي تتم عن الدور الكبير في دفاع صلاح الدين والأيوبيين عن الخلافة ومدى تقدير الخلافة لهذا الدور. وبعيداً عن تفاصيل السيرة من الواضح أنها لم تحاف الحقيقة التاريخية غير أن التفاصيل مختلفة بشكل كلي. إذ بدأت علاقة صلاح الدين بالخلافة في عهد الخليفة العباسي المستضيء بنور الله ت ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م باعتبارها تابعاً لنور الدين وكان ذلك بعد نجاحه في تصفية الخلافة الفاطمية تصفية سلمية ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م، ومن ثم أرسل له الخليفة الخلع العباسية والأعلام السوداء وسيفاً، اعترافاً من الخلافة بنباية صلاح الدين عن نور الدين بمصر، ول يعلن رسمياً سقوط الخلافة الفاطمية وانهارها وعودة مصر إلي أحضان الخلافة العباسية^٣. وما لبث الخليفة المستضيء بنور الله بعد مدة لم تزد عن السنوات الثلاث أن أرسل إلي صلاح الدين تقليداً جديداً بولاية مصر والشام بعد أن استطاع لم شمل البلدين في وحدة واحدة بعد وفاة نور الدين محمود، وذلك في عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م^٤.

وظلت العلاقة بين صلاح الدين والخلافة على ما يرام في عهد الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٤م، وتوالت الرسائل بين الطرفين تؤكد هذه الحقيقة ومنها رسالة من الخليفة إلي صلاح الدين عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م يطلب منه الدعاء والمبايعة لابنائه أبي النصر محمدًا وليا

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٢٢-٣٥.

٢ - نفسه، ص ٣٩.

٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٣٥؛ عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج٢، تحقيق إبراهيم الزبيقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٠٧؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم التاريخي)، ج٣، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي، دار روائع الأثير، الرياض، ٢٠٠٨م، ص ٥٨؛ ابن تقي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٦٤؛ السيد الباز العريني، الأيوبيون، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٤٣؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٦-٢٧.

٤ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٧٠؛ الدوداري، كنز الدرر، ج٧، تحقيق د. سعيد عاشور، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٥٨؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ص ١١٠.

لعهد^١، كما أرسل الخليفة إلى صلاح الدين سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م رسالة مصحوبة بعدة هدايا، وإذن لصلاح الدين باقتراض عشرين ألف دينار من التجار باسم الخليفة لينفقها في الجهاد^٢.

نخلص من ذلك إلى أن الصورة التي رسمتها السيرة الظاهرية، لعلاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية، لم تجاف الواقع في خطوطها العامة، من حيث حسن العلاقة واكتساب صلاح الدين الشرعية لحكمه لمصر والشام من خلال التقليد الرسمي من الخلافة، بالإضافة إلى قتال صلاح الدين لأعداء الخلافة وحمايتها منهم، ناهيك عن تأييده لولي عهد الخلافة، أما التفاصيل الدقيقة لهذه الجوانب فقد أطلق الراوي الشعبي لنفسه العنان ليملأها بالخيال والبعد عن الحقيقة زمنياً وتاريخياً.

ويري الدكتور قاسم عبده قاسم أن الطريقة التي استولي بها صلاح الدين على حكم مصر، وتصفية الخلافة الفاطمية قد أحدثت نوعاً من الشك في شرعية هذا الحكم الأيوبي^٣، ودلل ما ذهب إليه بما روته السيرة من أن مصر كانت منحة من الخليفة شعبان المقتدر لابنته شجر الدر، ثم نسي ومنحها مع الشام لصلاح الدين، وبعد مدة من الزمن في عصر حفيد صلاح الدين - الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ابن صلاح الدين كما تذكر السيرة الشعبية - جاءت شجر الدر إلى مصر وطالبت بما يحكم ما معها من حجج رسمية بمنحة أبيها، فكان الحل أن تزوج الصالح نجم الدين من شجر الدر فضا لمشكلة الشرعية^٤.

غير أننا نختلف مع الدكتور قاسم في هذا التفسير، ونرى أن الأمر ليس شكا في شرعية حكم الأيوبيين لكنه محاولة لإيجاد غطاء شرعى لحكم الظاهر بيبرس الذي تروي السيرة الظاهرية أن شجر الدر بعد زواجها من الصالح نجم الدين أيوب - ولي الله المجذوب - قاما بتبني بيبرس ليكون ولداً لهما^٥، ومن ثم أوجدت السيرة الشعبية حلاً لمشكلة الشرعية التي عانى منها المماليك، والتي حاول الظاهر بيبرس حلها في الواقع بإحياء الخلافة العباسية من جديد في مصر^٦. ولو صح الطرح السابق، لوجه الشك أولاً إلى مانح الشرعية وهو شخص الخليفة، وهذا لم يحدث كما سوف يتضح لنا.

٤- توحيد مصر والشام.

بالرغم من إيمان الراوي الشعبي بأن الخليفة العباسي هو صاحب الحق الشرعي والمتصرف في كل بلاد الإسلام فإنه كان من الذكاء بحيث ألح إلى أهمية القوة في اكتساب الشرعية بحيث نجد أن السيرة بعد أن نجح صلاح الدين في كبح جماح عدو الخلافة أو التتار كما ذكرت السيرة، فإن الخليفة قد استشعر

١ - العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القسي، تحقيق محمد محمود صبيح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٢٧٩.

٢ - ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الخاتجي، القاهرة، ص ١٨٣.

٣ - الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس، ص ١٣٢.

٤ - السيرة الظاهرية، ص ٤٩.

٥ - السيرة الظاهرية، ج ١، ص ١.

٦ - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٤١.

الخرج من عجزه وعدم قدرته على الحفاظ على بلاده ومن ثم عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن هذه الخلافة فهو أحق بها لأنه من حفظها، لكن صلاح الدين كان يدرك أنه وإن كان الأقوى فإنه لا يمتلك ما يمتلكه الخليفة، وهو القرب في النسب من النبي محمد - صلي الله عليه وسلم - ومن ثم طلب من الخليفة المطلب الذي من أجله تركوا أرض الأكراد، وهو منحهم أرضاً جديدة غير أرضهم الجديدة، فكان رد الخليفة حسب ما ترويه السيرة: "أيها الأمير المهام إني أعطيتك أنت وقومك أرض مصر والشام ولسك الخطبة ولك السكة ولك العزل والتولية وإن أردت شيئاً غير ذلك أعطيتك إياه".^١

وكتب الخليفة الحجج بمنحته لصلاح الدين والأكراد الأيوبية، وودع الخليفة ومعه سبعون ألفاً من الأكراد، وأراد الخليفة أن يخرج لوداع صلاح الدين بنفسه غير أن صلاح الدين أقسم عليه ألا يفعل. ومن هذا السياق يتضح إدراك الراوي الشعبي لتواضع الخليفة في مقابل أدب صلاح الدين تجله هذا الرمز الكبير سياسياً ودينياً.

وعاد صلاح الدين إلى بلاده وأخذ أولاده وأخذ باقي الأكراد أولادهم وساروا نحو مصر وتوجهوا أولاً نحو حلب فخرج إليهم حاكمها الشجاع عبد الله بن سعيد وقد ملأت أذنيه أخبار صلاح الدين الذي طبقت شهرته الآفاق فاعتقد أنه ضيفاً فأكرمه أشد ما يكون الكرم، وبعد ثلاثة أيام قدم له صلاح الدين الحجج فول عن نيابته وترك الأمر لصلاح الدين، فعين عليها حاكماً من طرفه، ووضع معه ألف كردي، ثم سار نحو دمشق فخرج حاكمها لاستقباله فعرض عليه صلاح الدين الحجج، فما كان من الوالي إلا أن تنازل عن ولايته فولي صلاح الدين عليها أحد رفاقه واسمه شرف الدين، ثم سار إلى غزة وولى عليها حسان الكردي، واستمر في المسير حتى وصل إلى النيل فولي نائباً عنه في دمياط يدعى الأقمراوي، وكذلك ولى على رشيد إسماعيل الكردي.

وحينما وصل إلى القاهرة فقد خرج إليه واليها وقد سمع بما حدث في طريق صلاح الدين المؤيد من أمير المؤمنين، ففتحت له القاهرة أبوابها فدخلها في رداء الصوفية وفي يده الترس الجميز والسيف الخشبي، وسار حتى دخل قلعة الجبل، فجلس وحوله أكابر الأكراد، وأمر بالعلماء فحضرُوا فقدم إليهم ما كتبه له الخليفة، فأعلنوا له بالسمع ودعوا له على المنابر.^٢

هكذا دانت مصر والشام حسب رواية سيرة الظاهر بيبرس لصلاح الدين، بشكل سلس أوجد خلالها الراوي الشعبي عدداً من الشخصيات الوهمية لتخدم غرض القصة التي يرويها ليصبغها بصبغة تبدو ولو كانت واقعية، لكن كل ما تخيله الراوي يجافي الحقيقة التاريخية إلى حد كبير، فعملية توحيد مصر والشام كانت من أعقد الأمور، في ظل وجود قوى رافضة لهذه الوحدة وعلى رأسها المعتدي الفرنجي الذي

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٣٤-٣٥.

٢ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٣٦-٣٥.

احتل الساحل الشامي بدعوى إنقاذ القدس، والذي بلغ ذروة قوته في عهد الملك عموري الأول^١ ووصل به الحد إلى التدخل في شئون مصر الداخلية حتى إنه وضع له حامية بباب القاهرة بدعوى حفظها من تدخل نور الدين عقب حملة عام ٥٦٣هـ / ١١٦٧م والتي تمثل قمة ما وصل إليه نفوذ عموري الأول في مصر.

في ذلك الوقت كانت دولة نور الدين في الشام في ذروة مجدها ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكي هو محط آمال الأمة للتخلص من الوجود الفرنجي، وكان صلاح الدين وأسرته في خدمة نور الدين، وجاء تدخل نور الدين في مصر في سببه المباشر نظرا للصراع على الوزارة الفاطمية بين شاور وضرغام. وجاء صلاح الدين في ظل هذا الأمر إلى مصر ثلاث مرات في أعوام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، و٥٦٢هـ / ١١٦٧م، و٥٦٤هـ / ١١٦٨م انتهت الجولات الثلاث بانتصار نور الدين محمود ممثلا في جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، حيث صار أسد الدين وزيرا للخلافة الفاطمية وما لبث أسد الدين أن توفي بعد شهرين ليصير صلاح الدين الوزير الفاطمي^٢.

وهنا بدأ دوره في الإجهاد على الخلافة الفاطمية الشيعية ليعيد مصر إلى حوزة الخلافة العباسية السنية وقد كان، وتم ذلك عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م^٣. وبهذا صارت مصر جزء من دولة نور الدين محمود. وهكذا تمت وحدة مصر والشام في إطار دولة نور الدين محمود، غير أن هذه الوحدة تعرضت للخطر بعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، لأنه ترك ولدا صغيرا هو الصالح إسماعيل، وقسمت دولته بين أمراء البيت الزنكي. ولم ينقذ ميراث نور الدين محمود من الخطر الصليبي سوى تدخل صلاح الدين في الشام استجابة لمطالب علماء دمشق بعدما عمتها الفوضى بسبب التنازع على الوصاية على ابنه الصالح إسماعيل بين شمس الدين على ابن الداية وشمس الدين محمد الشهير بابن المقدم^٤.

ولتوحيد مصر والشام معا في دولة واحدة هي الدولة الأيوبية الناشئة، مر صلاح الدين بمرحلتين: المرحلة الأولى أعلن فيها أنه جاء إلى الشام وفاء لسيده نور الدين وعونا لولده الصالح إسماعيل، ومن ثم حين اقترب من دمشق فتحت له أبوابها ودخلها بغير كثير عناء، ومن دمشق بدأ صلاح الدين مسيرة المعاناة للقضاء على التمزق الذي تعرضت له الوحدة من جراء وفاة نور الدين محمود. أما المرحلة الثانية فقد جاءت بعد موقعة قرون حمة بينه وبين القوات الزنكية عام ٥٧٠هـ / ١١٧٥م، التي انتصر فيها

١ - حول عموري الأول انظر: حجازي عبد المنعم، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠٠٦م.

٢ - حول حملات نور الدين على مصر انظر: المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج٣، تحقيق أحمد محمد حلمي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٦٤-٣٠٣؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ج٣، ص ٥٠٤-٥٠٣.

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٣؛ بهاء الدين بن شداد، النوار السلطانية، ص ٨٦؛ المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج٣، ص ٣٢٦؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ج٣، ص ٥٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٠.

٤ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٥٠٥؛ بهاء الدين بن شداد، النوار السلطانية، ص ٩٢.

وثبت أركان دولته وأعلن رسميا وحدة مصر والشام تحت قيادته وما لبث أن تصالح مع الزنكيين^١. على أن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل حاول الزنكيون مرارا بعد هذا الصلح تقديم منجزات صلاح الدين، لكنه استطاع التغلب عليهم وأجبرهم على صلح اعترفوا فيه بتبعيةهم له عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م أي قبل موقعة حطين بعام واحد^٢.

نخلص من ذلك إلى أن صلاح الدين قد بذل الغالي والتمين ليعيد توحيد مصر والشام من جديد في ظل دولته الناشئة، وأن هذا الأمر قد استغرق اثني عشر عاما، وليس كما روت السيرة الظاهرية - أن الأمر لم يستغرق أكثر من رحلة سار فيها صلاح الدين من العراق إلى الشام ثم مصر - غير أنه لم يعلق بالذاكرة الشعبية سوى أن صلاح الدين هو الموحد للقطرين برضاء الخلافة العباسية، ونسى أن الخليفة لم يكن يستطيع فعل شيء، فقد مضى عهد تأثير الخلافة منذ زمن طويل، وصارت الكلمة للسيف في كل الأمور.

٥- جهاد صلاح الدين

ورسخ في عقول المصريين وقلوبهم أن صلاح الدين كان ملكاً رفع راية الجهاد للتصدي للمعتدين على الأمة، غير أن من قاومهم صلاح الدين في السيرة الظاهرية يختلفون بشكل كلي عن قاومهم صلاح الدين بالفعل؛ فالسيرة تروي أن من قاومهم صلاح الدين المغول، وأن صلاح الدين تمكن من مقاومتهم مع الأكراد من بني جلده بسيفهم الخشبية ودروعهم المصنوعة من خشب الجعيز التي أهداها إليهم حبيب النجار وهم في طريقهم إلى بغداد^٣.

هذا ما تخيلته الذاكرة الشعبية عن جهاد صلاح الدين، لكن الذي نؤكد عليه هو أن صلاح الدين لم يجاهد في العراق، وإنما كان مسرح جهاده بلاد الشام كما هو ثابت تاريخيا، كما أن من قاومهم لم يكونوا المغول بل الفرنجة أو من عرفوا في المراجع الحديثة بالصليبيين. والثابت تاريخيا أن المغول لم يصلوا إلى بغداد سوى عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^٤، أي بعد نحو من خمس وستين سنة من وفاة صلاح الدين، وهو أمر يدعو إلى التساؤل لماذا لم يعلق بالذاكرة الشعبية أن صلاح الدين قاوم الفرنجة وليس المغول؟ والراجع لدي أن الذاكرة الشعبية حين بدأت في كتابة ملحمة الظاهر بيبرس التي صورت في مقدمتها حياة صلاح الدين تصويرا ملحيميا، كان الخطر الصليبي قد زال من بلاد الشام بشكل نهائي بعد فتح الأشرف خليل بن قلاوون لعكا وتوابعها عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م^٥. بالإضافة إلى أن صلاح الدين شخصية لها وزنها وتقلها في

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٧٠؛ الدوداري، كنز الدرر، ج٧، ص ٥٨؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ص ١١؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٣٩-٤٥.

٢- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ١٣٥؛ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٩.

٣- سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٢٢-٣٠.

٤- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص ٣٠٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٦٠.

٥- المقرئزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٦٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٥٦؛ أبو القدا، المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص ١٢٤؛ بيبرس المنصور، زبدة الفكرة في تاريخ الهرة، ٢٨٧-٢٨٠.

التاريخ العربي والإسلامي، ومن ثم يجب أن يكون من قوامهم في مستوي ثقله التاريخي، ولم يعلق بأذهان المصريين أن الصليبيين كانوا أكثر خطورة وعنفاً وسفكاً للدماء من التتار.

٦- صلاح الدين والتصوف

ومن أهم الحقائق التاريخية التي لمستها السيرة قضية اهتمام صلاح الدين بالتصوف. فقد روت السيرة أن صلاح الدين لم يكن بالرجل المتصوف، لكن ذلك جاء بشكل غير متوقع، فتروي السيرة أنه بينما كان صلاح الدين ومعه الأكراد في طريقهم إلى مقر الخلافة، ليطلبوا من الخليفة العباسي أرضاً غير أرضهم، قابلهم رجل جميل الطلعة حسن الخلقة فتوسم صلاح الدين فيه الصلاح فقبل يده وسألهم الرجل عن بغيتهم، فاخبروه بمهدفهم، فأثنى عليهم الشيخ، فطلب منهم أن يتبعوه حتى مكان إقامته ليخبرهم عن الصواب، فساروا خلفه إلى مغارة، فأمرهم بخلع ملابسهم وإلقاء سلاحهم وأعطاهم ملابس الصوفية وسيوفاً من الخشب وأتراساً من خشب الجميز، وقد أقنعهم الشيخ بأن هذه الأدوات أمضي من سيوف الفولاذ، ولما قاله لهم: "تحمّلون بالسيوف الخشب والأتراس الجميز فوعزة الله تعالى إنهم يقومون مقام السيوف واسقوا الأعداء كأس الخوف، وإني سألت الله سبحانه وتعالى أن يلبسكم الولاية إنتم وذريعتكم ويعطيكم الهداية والرعاية وتدرّكم العناية من رب البراه" وما أن لبسوا هذه الملابس وتقلدوا السيوف الخشب حتى صاروا من الأولياء وأمرهم الرجل بالمسير إلى بغداد لإنقاذ الخليفة من الأسر وقد فعلوا، ونجح الاختبار الأول وسحقوا المغول حسب رواية السيرة بالسيوف الخشب التي كانت أمضي من سيوف الفولاذ. وثقة في مضاء هذه الأسلحة فقد رفض صلاح الدين، ومن معه إغلاق أبواب بغداد حين هجم المغول هجوماً ثانياً وفي هذه المرة فإنهم سحقوهم بفضل بركة هذه الأسلحة البسيطة وتوكلهم على الله حق توكله^١.

وبالرغم من أن الرواية تجاف الحقيقة التاريخية والمنطقية فإنه لم ينمح من أذهان عامة المصريين دور صلاح الدين في نشر التصوف في مصر كوسيلة من وسائل تصفية الفكر الشيعي الذي عملت الدولة الفاطمية على ترسيخه منذ نشأتها وحتى قضى عليها صلاح الدين، ومن ثم حول التصوف من ظاهرة فردية إلى مظهر اجتماعي منظم، وفي سبيل ذلك أكثر من بناء الخانقاعات، أو بيوت التصوف وكان أولها خانقاه سعيد السعداء عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م^٢. وكان صلاح الدين في معاركه يحمل معه كبار المتصوفة ويستشيرهم ويستفيد من وجودهم في رفع الروح المعنوية للجنود في ظل تفاني المتصوفة في القتال^٣، وقد

Templar of tyre, p. 105-122.

محمد فوزي رحيل، مملكة عكا الصليبية، دراسة لعوامل الانهيار والسقوط، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ٢٠٠٨م، ص ٤٢١-٤٢٣.

^١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٢٠ وما بعدها.

^٢ - المقرئزي، الخطط، ج٤، ص ٤١٥؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٦، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص ٥٠.

^٣ - عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٤٣٨.

ساعد تصاعد نفوذ الصوفية في مصر وبلاد الشام على قدوم عدد من أعلام الصوفية في العصر المملوكي للاستقرار بمصر مثل الشيخ أحمد البدوي والشيخ أبي العباس المرسى^١. وقد ساعد توافد أعلام التصوف على مصر على ترسيخ هذا الاتجاه حتى صارت لهم كلمة قوية منذ العصر الأيوبي وحتى يومنا هذا.

كل هذا علق بأذهان المصريين فلم ينسوه، ومن ثم تصوروا صلاح الدين أحد الصوفية الفقراء أصحاب الخرق، حاملي سيوف الخشب ودروع الجميز التي هي في أذهانهم أقوى من أي سلاح حقيقي بحكم إخلاص هؤلاء المتصوفة للرب المعبود، ومن ثم فهم يقاتلون بأسباب تتعدى أسباب البشر، ومن هنا تتجلى فيهم ملامح البطولة الحققة.

٧- أخلاق صلاح الدين

لقد كان صلاح الدين عزفا منفردا شذ عن عصره في أمر النظر إلى الآخر والتعامل معه، فقد تميز عصره بالتعصب الديني والمذهبي، وشاع رفض الآخر، في ظل اشتعال الحرب بين الشرق والغرب، المعروفة اصطلاحا بالحرب الصليبية، غير أن صلاح الدين تميز عن غيره من معاصريه بأمر التسامح، وقد بلغ القمة في تصرفاته مع الصليبيين بعد انتصار حطين وفتح القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، نظرا لإرث الدم الذي سببه تصرف الصليبيين الأوائل حين دخلوا القدس وعرضوا أهلها على السيوف حتى تفاخر المؤرخ الصليبي المعاصر للحملة الصليبية الأولى فوشيه الشارترى بغوص الخيول في دماء أهل القدس من المسلمين والمسيحيين الشرقيين حتى ركاها^٢، ومن ثم لو فعل صلاح الدين مثل ذلك حين فتح القدس لما لاهمه أحد، لكنه خالف كل التوقعات حتى صار مضربا للأمثال في الشرق والغرب على حد سواء، ويكفي أن أسوق مثالا واحدا على لسان مؤرخ يحسب على الصليبيين - للأسف لم يصل إلينا اسمه - حين قال: "لا يجوز لي أن أغفل عنك عمالا من أعمال الرحمة التي قام بها صلاح الدين فقد حدث أثناء حصار القدس - حين غادر بلدوين أبلين المملكة - أن عهد بابنه الصغير المسمى توماسين إلى رعاية أخيه باليان. كما كان هناك طفل صغير اسمه جيلمان وهو ابن ريموند صاحب جبيل، وكان الطفلان في القدس، فلما سمع أبوهما أن الصالح قائم على حصار المدينة بعثا إليه يستعطفانه على الصغيرين وأن يسمح لهما بالنجى إليهما، فأرسل إلي بالي، في القدس يطلب الطفلين لإرسالهما إليه فعطف عليهما وأرسلهما إلي أبيهما"^٣.

شذ ذلك يروي قاضيه بهاء الدين ابن شداد^٤ - الذي خصص بابا عن مروءة صلاح - قائلا "كنت راكبا في خدمته - صلاح الدين - في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض الزكية، ومعه امرأة شديدة التحرق كثيرة بكاء متواترة الدق على صدرها فقال الزكي: إن هذه خرجت من عند الإفرنج

١ - سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، في مصر والشام، ص ١٣٨.

٢ - فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي، في فلسطين ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار الشرق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٣٧.

٣ - ذيل وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٠٩-١١٠.

٤ - بهاء الدين بن شداد: هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، واشتهر بابن شداد، وشداد هو جده لأمه، ولد عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م، عاش ثلاثا وتسعين سنة، تو، بحلب عام ٦٣٢هـ/١٢٣٩م. ابن شداد، التوادر السلطانية، المقدمة، ص ٥.

وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا هنا . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها ، فقالت إن اللصوص المسلمين دخلوا الباحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي، وبنت الباحة أستغيث إلي بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني ، وما أعرف ابنتي إلا منك. فرق لها ودمعت عينه، وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة، من اشتراها ويدفع ثمنها، وبحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها، فخرت إلى الأرض تمرغ وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء ولا تعلم ما تقول، فسلمت ابنتها إليها ، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم".^١

هذه الأفعال وأمثالها من المروءة والشجاعة انطبعت في الذاكرة الشعبية ومن ثم لا نستغرب أن يقبل صلاح الدين أن يجير ولدي منكتم المغولي الذي أعدمه الخليفة وهما عبد يزيد وهلاوون اللذين استجارا بصلاح الدين الذي نهض وقيل الأرض بين يدي الخليفة، واستشفع الخليفة على أن يفدي نفسيهما بالمال ويدفعا جزية كل عام، ذلك أن قتلهما لن يفيد الإسلام ، ففوضه الخليفة لاتخاذ اللازم معهم فقرر عليهم عشرة خزائن من المال كل خزانة مائة ألف ريال فقبلوا.

غير أن الخليفة قرر بقائهم في السجن حتى يأتي المال، لكن صلاح الدين قرر أن يضمّنهم وسأل الخليفة أن يطلق سراحهما، فإن لم يرسل المال سار إليهم في عقر دارهم وفعل بهم ما فعله في بغداد، فتركا، وردت إليهما خيولهما وأسلحتهما. وما هي إلا أيام احتفل فيها الخليفة شعبان المقتدر بالنصر، وكرم فيها صلاح الدين والأيوبيّة الأكراد حتى أقبل رسل هلاوون وكتب يزيد بما قطع عليهم من الأموال عشرة خزائن مال وعشرين ألف ريال خراج عام، وعشرة آلاف لصلاح الدين شكرا على مروءته، غير الخيل والبغال والجنود.^٢

ولعل هذه الرواية الشعبية تذكرنا بفعال صلاح الدين مع ملك بيت المقدس جي لوزينيان Reynald Guy of Lusignan^٣، وكبار أمراء مملكته مثل رينو دو شستيون Chatillon^٤ وغيرهما، ونظرا لعطش الملك الصليبي ومن معه فقد أحضر لهم ماء مثلجا في وعاء من ذهب وقدمه إليهم وأحسن محبتهم فيما عدا رينو بسبب سابق إساءته للمسلمين فيما قبل، ومن ثم لم

^١ - بهاء الدين بن شداد، النواذر السلطانية، ص ٦٨-٦٩.

^٢ - سيرة الظاهر بيبرس، ج ١، ص ٣٣-٣٤.

^٣ - جي لوزينيان: كان ملكا لمملكة بيت المقدس في الفترة بين عامي ١١٨٦ و ١١٩٠ بزواجه من سبيل وريثة عرش بيت المقدس ، ثم صار ملكا على قبرص عام ١١٩٢ حتى توفي ١١٩٤ م . عنه انظر : The Crusades, an encyclopedia, vol. 1, ed. By Alan V. Murray, ABC, Oxford, 2006, p.549

^٤ - رينو دي شاتيون: حكم أنطاكية بين عامي ١١٥٣-١١٦٣ ثم حصن الكرك بين عامي ١١٧٧-١١٨٧م وقتل بيد صلاح الدين بعد نصر حطين. The Crusades, an encyclopedia, 1027

يسعه غفو صلاح الدين الذي عم الجميع^١ ثم أطلقوا فيما بعد مقابل فداء اختلف من أسير إلى آخر حسب مراتبهم^٢.

٨- بناء قلعة الجبل.

أما عن مقر صلاح الدين في مصر فتروي السيرة أن صلاح الدين قد قرر أن يبني لنفسه قصراً شاهقاً يحمل اسمه في قلعة الجبل، فجمع المهندسين والبنائين الذين عملوا ليل نهار حتى فرغوا من القصر وكتبوا على بابهِ "خليفة الله يوسف الكردي أدام الله بقاءه"، فلما فرغ من بناء القصر عمل فيه الختومات وفرش القصر بأنواع الحرير وألوانه^٣.

هذا ما ترويهِ السيرة، أما الحقيقة التاريخية حول مقر صلاح الدين في مصر، فقد أمر صلاح الدين مملوكه بهاء الدين قراقوش^٤ عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م ببناء قلعة لحماية القاهرة ولتكون مقراً للحكم، غير أنها لم تتم في حياة صلاح الدين بل تمت في عهد الكامل ابن العادل الذي اتخذها داراً للملك، ثم صارت سنة من بعده^٥، بينما كان صلاح الدين يزل دار الوزارة، غير أن الذاكرة الشعبية لم تنس أن مكان قلعة الجبل لم يكن خراباً قبل القلعة، بل كان مكاناً معروفاً، وكان فيها قبل بناء القلعة قبة تعرف بقبة الهواء التي بناها حاتم بن هرثمة^٦، وظلت قبة الهواء محط اهتمام الولاة حتى خربت في نهاية الدولة الطولونية، فسُبي في موضعها مقابر ومساجد^٧، وصارت أماكن عامرة حتى ألف فيها الشريف محمد بن أسعد الجواني كتاب "النقط في الخطط والمساجد المبنية على الجبل المتصل بالبحر المظلة على القاهرة المعزية"^٨. ولم يُصح ذلك من ذاكرة الشعب المصري، ومن ثم ترسب فيها أن القلعة قديمة، واستحدثها صلاح الدين، والتابست في النص التأسيسي، في هذا الموضع ليس أكثر من بناء قصر يكون مقر للملك ليس أكثر، غير أن الأمر الأكيد الموافق للتاريخ هو رغبة صلاح الدين في جعلها مقراً للحكم، وهو ما تم بالفعل، فقد بقيت مقراً للحكم حتى عام ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م^٩.

١ - ذيل وليم الصوري، ص ٩٠.

٢ - نفسه، ص ١٥٠.

٣ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٣٧-٣٨.

٤ - بهاء الدين قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الاسدي، الملقب ببهاء الدين، كان خادماً لصلاح الدين، فاعتقه ولما تولى وزارة الفاطميين جعله زمام القصر، وقد ناب عن صلاح الدين فترة في حكم مصر، فقام بكثير من الإنشاءات المعمارية لتحسين المدينة. توفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ودفن بسفح جبل المقطم، ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج٤، ص ٩١-٩٢.

٥ - ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٣٠؛ المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٢٠١.

٦ - حاتم بن هرثمة: هو حاتم بن هرثمة بن أعين، حكم مصر عام ١٩٤هـ من قبل الخليفة محمد الأمين، وعزل في العام التالي. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ١٤٤-١٤٥.

٧ - ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ١٧٤؛ المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٢٠٢.

٨ - المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٢٠١-٢٠٢.

٩ - مادة قلعة صلاح الدين، دائرة المعارف الحرة (ويكيبيديا)

[http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D9%84%D8%B9%D8%A9_%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%8A_\(%D9%85%D8%B5%D8%B1](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D9%84%D8%B9%D8%A9_%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%8A_(%D9%85%D8%B5%D8%B1)

دانت مصر والشام لصلاح الدين، واستقر بمصر في قلعة الجبل ورزقه الله بولدين هما العادل والكمال، هذا ما تراه السيرة الظاهرية وتخيّلته الحق كل الحق، فتروي أن العادل ابن صلاح الدين قد ولي دمشق فترة من الزمن، حتى توفاه الله، ومن ثم حزن عليه صلاح الدين حزناً أفضى إلي وفاته هو شخصياً بعد أمد قصير^١. هذا ما ترويّه السيرة، فلم يحمل الشعب المصري الكثير لأبناء صلاح الدين السبعة عشر ذكراً وابنة صغيرة^٢، وبالرغم من أن العزيز عثمان ابن صلاح الدين^٣ حكم مصر بعد والده مباشرة خمس سنوات.

وبالرغم من عدله وإحسانه فإن أيامه كانت بؤساً وشقاءً على المصريين بسبب ما ألم بمصر من أزمة اقتصادية ٥٩١-٥٩٢هـ/١١٩٤م أدت إلى كثرة الوفيات حتى لم يجد الناس الأكفان يكفون بها موتاهم، في وقت شغل فيه العزيز عثمان بالصراع مع إخوته على ملك أبيهما صلاح الدين^٤، أما أخوه الأفضل^٥ الذي حكم دمشق فلم يكن رجل الساعة بالرغم من أنه كان يحمل لقب السلطنة بوصاية من أبيه، لكنه لم يقدر أهمية التبعية ومن ثم ترك أمور الحكم في يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير^٦، وانصرف إلي ملذاته ودخل في صراع مع أخيه العزيز عثمان حتى انتهى الأمر بخلع الأفضل وولاية الملك العادل حكم دمشق نيابة عن العزيز، الذي توفي عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م.

ورأت العادل الفرصة ليعيد توحيد الدولة الأيوبية من جديد^٧، وهكذا كان أبناء صلاح الدين ظللاً شاحبة ولم يقدموا الكثير، ولذا فلم يعرفهم المصريون الاهتمام، ورأوهم غير جديرين بالنبوة لصلاح الدين البطل الصوفي صاحب الشرعية كما تخيلوه، ومن ثم تجاوز الخيال الشعبي أبناء صلاح الدين، وجعلوا أخيه العادل وابنه الكامل ولدين له، وهذا يدل على ذكاء الوجدان الشعبي الذي لا يخلد إلا من قدم له إنجازات حقيقية، فالعادل هو من وحد مصر والشام بعد طول خلاف بين ورثة صلاح الدين^٨، أما الكامل ابن العادل فحدث ولا حرج عن إنجازاته بمصر، مثل التصدي للحملة الصليبية الخامسة^٩، واستقرار أحوال

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٤٤.

٢ - العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٢٩.

٣ - العزيز عثمان: هو أبو الفتح العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، حكم مصر في حياة أبيه ثم استقل بها بعد وفاته عام ٥٨٩هـ حتى توفي عام ٥٩٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٠-٥٨٩هـ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٠-١٣٠.

٤ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٣٤؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٢٣.

٥ - الأفضل بن صلاح الدين: هو أبو الحسن علي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد عام ٥٦٥هـ حكم دمشق بعد وفاة صلاح الدين حتى صرفه استولى عليها عمه الملك العادل وأخيه صلاح الدين ومنحاه صرخد، وتوفي عام ٦٢٢هـ بتسميط ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤١٩.

٦ - ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٢٠؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٧٥.

٧ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٧؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٨١.

٨ - حول توحيد العادل للدولة الأيوبية انظر: المقرئ، السلوك، ج١، ق ١، ص ١٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٦٢؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٨١-٧٩.

٩ - ابن أبيك الدوداري، كنز الدرر، ج٧، ص ٢١١.

مصر في عصره وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره ابن كثير^١: "ملك مصر ثلاثين سنة وكانت الطرقات في زمانه آمنة والرعايا متناصفة لا يتجاسر أحد أن يظلم أحد".

كما تجدر الإشارة إلى أن الواقع التاريخي لعهدي العادل والكمال كان له ظل قوي على السيرة الشعبية، ظهر هذا الظل في الرواية الشعبية بأن العادل حكم الشام ومات هناك، وهذا ما أحزن صلاح الدين وجعله يشعر بدنو أجله فاستدعى ولده الكامل ومنحه ملك مصر من بعده^٢. فالواقع التاريخي أن الملك العادل حين تمكن من توحيد مصر والشام، واستقر به الحال فإنه قسم البلاد بين أبنائه في حياته، وصار ينتقل بين تلك البلاد وأبناؤه يحكمون نيابة عنه، وكانت مصر من نصيب ولده الملك الكامل، ومن ثم حين مات الملك العادل عام ٦١٥هـ/١٢١٨م فقد صارت مصر نصيباً شرعياً لولده الكامل^٣، ويبدو أن طول بقاء العادل في الشام وبقاء الكامل في مصر، رسخ في أذهان العامة من المصريين أن العادل هو حاكم الشام والكامل هو حاكم مصر. ونتفق مع الدكتور قاسم في أمر محدودية ذكر الكامل في السيرة الظاهرية، الذي لم يتجاوز المرة الواحدة، وأن هذه المحدودية ربما هي انعكاس لفعلية الملك الكامل - التي تركت أثراً سائداً في نفوس عامة العرب والمسلمين - وهي تسليم القدس للإمبراطور فردريك الثاني^٤، والتي دافع عنها بعض الباحثين المحدثين وأوجد لها المبررات من الواقع السياسي المعاصر^٥.

١٠ - وفاة صلاح الدين.

نعود إلى السيرة إذ لم يتحمل صلاح الدين خبر وفاة ولده العادل فقد أصابه الغم على ولده العادل، فاستدعى ولده الكامل وفوضه في كافة الأمور وكف عن الزول إلى الديوان، وأصاب صلاح الدين مرض الموت ولزم فراشه مدة واحد وعشرين يوماً، وتوفي في الساعة السادسة يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ فكفن وقبر في قصره وحزن سائر الخلق لوفاة، وجلس مكانه

١ - البداية والنهاية، ج٤، تحقيق أحمد فتحي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٧١.

٢ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٤٤.

٣ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٧.

٤ - بين التاريخ والفلكلور، ص ١٣٣.

فردريك الثاني: خلف والده هنري السادس في حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ١١٩٧هـ/١١٩٧م بمباركة البابوية في روما، لكنه دخل في صراع معها بسبب الخلافات السياسية وممطلاته في الخروج في حملة صليبية مما أدى إلى حرمانه من قبل بابا روما وهين خرج في الحملة الصليبية السادسة حقق نجاحاً لم تحققه أكبر الحملات الصليبية دون إراقة قطرة دم واحدة باسترجاع القدس للصليبيين بعد مفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي، توفي عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠). عنه انظر: فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني ضد الأبلينيين في سورية وقبرص، ضمن: الموسوعة الشامية، ج٤، ترجمة د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٩٩.٥، انظر أيضاً:

Wiegler, The Infidel Emperor and his Straggles Against the Pope, London, 1931. Cf. also, Kington, Life Frederick II Emperor of Romans, 2 vols., London, 1862; Kantorowicz (Ernst), Fredrick the Second 1194-1250, translated by E. O. Lorimer, New York, 1957; Jones, The Crusades Biographies, pp. 93-102.

راجع أيضاً، سعيد عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١١، ١٩٦٣، ص ١٩٥-٢١٣؛ وأيضاً، أوربا العصور الوسطى، ج١، ص ٣٩٠-٤٠٣.

٥ - رافت عبد الحميد، الملك الكامل بين الإقطاع والتفرط في مواجهة الصليبيين، ضمن كتاب من قضايا الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٢٣-٢٠١.

ولده الكامل^١. هكذا توفي صلاح الدين في نظر الرواية الشعبية، ودفن في قصره أي في قلعة صلاح الدين، وهذا إصرار على احتفاظ مصر بالبطل الصوفي صلاح الدين حياً وميتاً.

والحقيقة أن تاريخ وفاته الذي ساقته السيرة بعيد كل البعد عن الواقع التاريخي، فالتابست أن صلاح الدين توفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر عام ٥٨٩هـ / ١١٩٢م أي بعد صلح الرملة مع ريتشارد قلب الاسد بخمسة أشهر فقط بسبب حمى استمرت اثني عشر يوماً - توفي بسببها - ودفن في دمشق^٢. أما اختيار عام ٧٥٢هـ^٣ ليكون عام وفاة صلاح الدين في الرواية الشعبية فليس له ما يبرره إلا أن يكون من قبيل ترصيع السيرة بتواريخ لتكتسب طابعاً من المصداقية لدى المتلقي من عامة المصريين.

شخصيات وأحداث مهمة أغفلتها السيرة

١- الدولة الفاطمية والتشيع

لم تهم سيرة الظاهر بيبرس بأمر الدولة الفاطمية التي أزالتها صلاح الدين ولم تهم بالتشيع، ولعل ذلك قد جاء بسبب بعد الفترة الزمنية بين تدوين السيرة والقضاء على الدولة الفاطمية التي بذل صلاح الدين جهداً حثيثاً للقضاء عليها، ومحو آثارها لدرجة التخلص من مكتبة القصر الفاطمي التي قل أن يوجد مثلها بسبب احتوائها على كتب التشيع، بالإضافة إلى إنشاء المدارس السنية لتحول مذهب الدولة من التشيع إلى المذهب السني مرة أخرى، بالإضافة إلى إغلاق الجامع الأزهر، أهم جوامع القاهرة، والذي كان أهم منابر المذهب الشيعي في مصر، كل ذلك أدى إلى انحسار التشيع وسيادة مذهب أهل السنة، ومن ثم لم تهم السيرة بذكر الفاطميين أو بذكر مذهبهم. وفوق كل ذلك لم ينتشر التشيع بين المصريين على نطاق واسع ومن ثم لم تحدث ثورة شعبية تطالب بعودة الخلافة الفاطمية، بعد الدعاة للخليفة العباسي المستضيء عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م حتى وصف ابن الأثير الأمر بأنه أمر "لم يتطأح فيه عرآن" وكل ردود الأفعال لم تأت من المصريين بل من الطوائف المستفيدة من الوجود الفاطمي^٤.

٢- نور الدين محمود:

لم تذكر السيرة نور الدين محمود سيد صلاح الدين ومرسله إلى مصر، والراجح لدي أن سبب ذلك أن نور الدين لم يأت إلى مصر ولم يحتفل بانتصاراته بها، وما أنجزه كان في الشام، ومن ثم كان حضوره

١ - سيرة الظاهر بيبرس، ج١، ص ٤٤.

٢ - بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣١٢.

٣ - بمراجعة أحداث ٧٥٢هـ / ١٣٥١م في المصادر تبين أنه كان عام فتن وعدم استقرار في مصر والشام في ظل خروج نائب صفد - شهاب الدين أحمد - على السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، حتى اضطربت أحوال الشام، ثم اختلف الأمراء في مصر على السلطان حسن وخلعوه ونصبوا أخيه الصالح صلاح الدين الذي لم تمدح سيرته ولم تزد لتغلب اثنين من كبار المماليك عليه وهما شيخون وطاز. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٥٨-٢٥٩، ابن تقي بردي، النجوم الزاهر، ج ١٠، ص ٢٨٧-٢٨٨.

٤ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥، عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي، الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٧، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم التاريخي)، ج ٣، ص ٥٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٤، السيد الباز العريني، الأيوبيون، ص ٤٣، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٦-٢٧.

أقوى هناك، أما في مصر فالعامة لم تعرفه وربما لم تسمع عنه بالرغم من الدعاء له على المنابر منذ تولى شريكه الوزارة في مصر عام ٥٦٤هـ/ ١١٩٦م حتى وفاته عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م^١. لكنه لم يزر مصر ولم يستقبل بها استقبالا يترك ذكره في أذهان عامة المصريين البسطاء، كما لم يعلق بأذهانهم شيء من إنجازاته - على كثرتها - ومن هنا لم تحفل به السيرة.

٣- أسد الدين شريكه:

بطل الوحدة الحقيقي الذي خاض ثالث جولات من الصراع على مصر خرج منها منتصرا ممهدا للوحدة الفعلية بين مصر والشام تحت سلطان نور الدين ثم صلاح الدين من بعده. وبالرغم من أنه تولى الوزارة في مصر فإنها كانت مدة قصيرة لم تتجاوز الشهرين ولم تكن كافية لشعر المصريون بوجوده ولم ينجز في مصر إنجازا يشعر عامة المصريون به^٢.

٤- قراقوش

أما بهاء الدين قراقوش مملوك صلاح الدين الذي عهد إليه صلاح الدين بتصفية الخلافة الفاطمية وتحصين القاهرة^٣، بالرغم من إنجازاته التي عددها المصادر التاريخية المعتمدة فلم تعره السيرة اهتماماً، وربما يرجع ذلك إلى حزمه وإجراءاته المشددة لإنجاز المهمة التي عهد إليه بها ومن ثم مس الموظفين المصريين شدة من أفعاله مثل الأسعد ابن مماتي^٤ الذي تأذي كثيرا منه لدرجة أنه ألف كتاباً كاملاً سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، بالإضافة إلى كثرة مشروعات قراقوش الإصلاحية مثل بناء القلعة وسور القاهرة^٥. وربما مس المصريين منه شدة، وربما استخدم أعداداً من العامة لمعاونته في هذه المشروعات، ومن ثم لم يترك ذكرى سعيدة في عقول المصريين، وبما أنهم رأوا أن ثوب صلاح الدين طاهر نقي وبطل صوفي فقد تغاضوا عن ذكر موظفه الشديد تحاشيا لتلويث هذا الثوب.

٥- الصليبيون.

أما الصليبيون أو الفرنجة فبالرغم من أنهم من قاتلهم صلاح الدين وكانوا محور جهاده فإن السيرة جعلت من قومهم صلاح الدين هم المغول، بالرغم من الفارق الزمني الكبير بين وفاة صلاح الدين، وتهديد المغول للخلافة تهديداً فعلياً، فليس هناك مبرر قوى لتبديل هذا بذلك. إلا أن تكون عظمة شخصية صلاح الدين البطل الصوفي في العقل الجمعي المصري جعلت الراوي الشعبي يختار عدواً جباراً يسحقه

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١١.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٥٥.

٣ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٤-٣٠٣؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الإيصار، ج ٣، ص ٤٣-٥٠.

٤ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٩١.

٥ - الأسعد بن مماتي: هو القاضي الأسعد أبو الدكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد بن مينا، تولى نظر الدواوين المصرية، وله مصنفات عديدة منها نظم سيرة صلاح الدين ونظم كيلة ودمنة توفي عام ٦٠٦هـ في مدينة حلب. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢١٠.

٦ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٩١.

صلاح الدين بما يتناسب مع كونه بطلاً كبيراً. خاصة أن الصليبيين خلال فترة تواجدهم في الشام قد أقاموا علاقات مع المسلمين بصور مختلفة وتشبهوا بهم في المآكل والمشرب وبعض عادات النظافة السقي لم تكن مألوفة للأوروبيين في ذلك الوقت^١، كما أن عدوانهم وإن استمر قرنين من الزمان إلا أنه لم يترك دماراً مجحماً ما تركه المغول في أنحاء العالم الإسلامي^٢.

لماذا لم يفرط صلاح الدين بصيرة شعبية مستقلة

والآن آن الأوان لتجيب على السؤال الذي طرح في البداية، حول أسباب عدم إفراد صلاح الدين بسيرة شعبية منفردة مثلما حدث مع الظاهر بيبرس. والأرجح لدي في هذه القضية ما يلي:

١- النشأة: صلاح الدين نشأ وتربي وتكونت شخصيته في العراق والشام ومن ثم لم يدرك المصريون شيئاً من هذه الفترة^٣، بخلاف الظاهر بيبرس الذي جاء إلي مصر صغيراً وتربي ونشأ فيها، وتحول من مملوك إلي سلطان عظيم^٤.

٢- هدم صلاح الدين الخلافة الفاطمية وحول مصر من دولة خلافة إلى إقليم تابع لدولة صلاح الدين التابعة للخلافة العباسية^٥، أما الظاهر بيبرس فقد أكد مصر مقراً لسلطنة المماليك ومقراً للخلافة العباسية التي أحيها من جديد، ومن ثم عاد سابق عز مصر إليها على يديه^٦.

٣- في ظل حروب صلاح الدين صارت مصر أهم مصدر مالي لتمويل الجهاد ضد الصليبيين في الشام، ومن ثم نقل جزء كبيراً من ثروة مصر إلي الشام لتمويل هذه الحروب حتى افكت خزائن الدولة، وتحمل كثير من المصريين ضرائب كبيرة فرضت لتمويل حروب صلاح الدين^٧. أما الظاهر بيبرس فقد وطد ملكه بمصر وصارت القاهرة عاصمة دولته المتراصة الأطراف، تجبى إليها غنائم الحروب وخيرات الحصون المفتوحة^٨.

١ - يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عيده قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠٨.

٢ - تعتبر بغداد من أكثر النماذج وضوحاً على مدى الدمار الذي ألحقه المغول بحواضر العالم الإسلامي: حول ذلك راجع: مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ١٤٧-١٦٥.

٣ - حول نشأة صلاح الدين انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٩؛ ابن خلكان، وفیات الاعيان، ج٧، ص ١٤٤-١٤٥؛ هادية دجاني، صلاح الدين بين التاريخ والملحة والأسطورة، ص ٢٦٤-٢٧١.

٤ - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٥-٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٩٤-١٠٠.

٥ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٣٥؛ عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج٢، ص ٢٠٧؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم التاريخي)، ج٣، ص ٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٦٤؛ السيد الباز العريفي، الأيوبيون، ص ٤٣؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ١٩٩٦م، ص ٢٦-٢٧.

٦ - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٤١.

٧ - سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١٦٢.

٨ - حول خيرات الحصون المفتوحة انظر على سبيل المثال غنائم فتح أنطاكية التي وزع الذهب فيها على الجند بالاطاسات، انظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٢٤.

٤- لم يكن لدى صلاح الدين الوقت الكافي ليلتحم بجموع المصريين ويعيش بينهم في أحزانهم وأفراحهم بسبب مهمته الأساسية التي جاء من أجلها إلى مصر وهي الجهاد وطرد الفرنجة من الشام. أما الظاهر بيبرس فقد لمس أوضاع المصريين عن قرب، وحضر كثيراً من مناسباتهم وأقام العدل بين الناس بنفسه في كثير من المناسبات^١ وحضر كثيراً من موالد أعلام الصوفية وتقرب من هذه الفئة وصحبهم في حروبه تبركاً بهم ولهم ما لهم في نفوس الأهالي، وهو ما قرب الظاهر من الشعب كثيراً^٢.

خاتمة.

وبعد هذه الدراسة التحليلية لسيرة صلاح الدين كما رأينا المخيلة الشعبية المصرية التي رويت في صدر ملحمة أو سيرة الظاهر بيبرس نخلص إلى الآتي:

أن الذاكرة الجماعية للشعب المصري قد حملت الكثير لصلاح الدين الأيوبي ورسخ في مخيلتها أنه بطل ومجاهد، دافع عن الخلافة وحقق كثيراً من الانتصارات على الأعداء، وظل على علاقة قوية بالخلافة حتى وفاته، وبرزت خلال هذه الانتصارات مروءة وشهامة صلاح الدين، كما تمكن هذا البطل من توحيد مصر والشام وتنظيم أمورهما، وفي مصر بنى قصراً كبيراً في قلعة الجبل.

ولم تحاف هذه الصورة في مجمل خطوطها العامة الواقع التاريخي كثيراً، ولكنها بعيدة في تفاصيلها كل البعد عن هذا الواقع، فقد لى الراوي الشعبي للسيرة كثيراً من حاجيات السامعون النفسية والتعويضية، إرضاء لهم، ومن ثم بنى أرضية وأعمدة من الواقع التاريخي، وأكمل البناء من الخيال، حتى يستسيغه السامعون من جموع الشعب المغلوب على أمره، والذي ذهب بعد يوم من الشقاء إلى المقاهي ليفرج عن نفسه هموم يومه وليستعد ليوم يتلوه.

وبالرغم من وجود شخصيات كثيرة ارتبطت بصلاح الدين كان يجب ذكرها، إلا أن هذه الشخصيات توارت في غياهب النسيان، بسبب بعدها عن واقع الشعب المصري، أو بسبب سوء تصرفاتها التي ربما لو أثير إليها تسيء من صورة جميلة رسمتها هذه السيرة للبطل صلاح الدين، الذي تنازعه العرب والكرد كل يصر على نسبته إليه.

ومع أن صرعة صلاح الدين كانت مثالية في الرواية الشعبية، إلا أن هذه الرواية لم تفرد لهذا البطل سيرة مستقلة مثلما فعلت مع الظاهر بيبرس، وذلك راجع إلى عوامل كثيرة منها نشأة صلاح الدين بعيداً عن الواقع المصري، ففدان مصر كثير من المميزات في ظل حكم صلاح الدين مثل المركزية ونسرف أموالها نحو الشام.

^١ - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٧٧.

^٢ - نفسه، ص ١٧٦.